الفكر العربي والفلسطيني قبل مطلع عقد التسعينات، فان التساؤل الذي يثار هو عما إذا كان الفكر السياسي للعرب في اسرائيل، كما عبّرت عنه مقولات «حركة الارض»، أكثر استشرافاً لما ستؤول اليه حقائق الصراع العربي ـ الاسرائيلي والقضية الفلسطينية؟

على كل حال، فقد استخدم سيف القانون ـ كما وضعته وفسّرته وطبّقته السلطات الاسرائيلية ـ في استئصال «حركة الارض»، وما ارتبط بالعرب في اسرائيل من أطر تنظيمية أشتمت منها رائحة البعد الاستقلالي في الفكر والحركة. بيد ان خبرة الحركة على قصر عمرها، خلقت، بدورها، زخماً بين العناصر الواقعة خارج حومة الحزب الشيوعي، ووطّدت قاعدة في فكرهم السياسي، مفادها، أن السلطات لن تتساهل، على الاطلاق، مع أية قوة لها طبيعة فلسطينية خالصة، مهما كان شكلها. وأنه من الافضل العمل وطرح المطالب والافكار في ظل أطر وتكوينات ليس من شأنها إثارة السلطات وقوانينها، تحاشياً لضرباتها قدر الامكان. وقد بدأ العمل، في ظل هذه القناعة، منذ مطلع عقد السبعينات، ولا زالت أصداؤها تتردد، على نحو أو آخر، في الفكر والحركة السياسية للعرب في اسرائيل حتى الوقت الحاضر. وهناك مثلين بارزين، في هذا الصدد، أحدهما يعود الى أواخر عقد السبعينات، والآخر أقرب تاريخياً، يعود الى مطلع العقد الحالي. فأثناء التحضير لانتخابات الكنيست التاسع في العام ١٩٧٧، برزت ميول لدى بعض الفعاليات العربية في اسرائيل، وخاصة في إطار الحزب الشيوعي، لخوض الانتخابات على أساس قائمة عربية منفصلة لاستقطاب الاصوات العربية المبعثرة على جميع القوى والأحزاب الاسرائيلية. وتحسباً من لجوء السلطات الى الاجراءات القانونية التقليدية التي تمنع تشكيل قائمة عربية مستقلة، تمّ تشكيل «الجبهة التقدمية للسلام والمساواة»، بحيث ضمّت، الى جانب عمودها الفقري من قوى الحزب الشيوعي، عناصر من الوسط اليهودي لها ذات الافكار والرؤى، كحركة «الفهود السود»[٢٤]. كذلك فانه استغلالاً للقانون الاسرائيلي في ما يخص انشاء الجمعيات العثمانية، استعاضت القوى التقدمية عن تشكيل جبهة واحدة، قد يتمّ الاطاحة بها دفعة واحدة، بانشاء وتسجيل جمعيات ذات أهداف اجتماعية وثقافية محدّدة، لكن ذات طابع فلسطيني واضح. وكانت الاستراتيجية المحركة لهذا التصرّف، هو أن تكون الجمعيات المختلفة والمستقلة من ناحية التسجيل القانوني، محاور مترابطة للعمل الوطني الفلسطيني. ومن المثير هنا، ان الأسماء التي ارتبطت بتكوين هذه الجمعيات، ومن ثم بتلك الاستراتيجية، هي الاسماء نفسها التي إقترنت، سابقاً، بحركة الارض[٢٥]. هذا التحرك العربي السياسي، من خلال الانتشار، تكرر في سياق حملة الانتخابات للكنيست الثالث عشر في العام ١٩٩٢. فاذا كان كثيرون عبّروا عن أسفهم، لعدم قدرة القوى السياسية العربية عن تكوين قائمة موحّدة، لأن هذا الوضع أضاع على هذه القوى فرصة الحصول على ما بين ١٥ و١٧ مقعداً من مقاعد الكنيست، ومن ثم فرصة أن يكون هؤلاء القوة الثالثة في اسرائيل بعد العمل والليكود، فان البعض نظر الى هذه الظاهرة على أنها آلية مقصودة، لأنه «ليس من مصلحة العرب في اسرائيل ان يتحدوا في قائمة واحدة تكون لها الصفة القومية، مما قد يدفع السلطات الى منعها من خوض الانتخابات»[٢٦]، كما أن قائمة عربية موحّدة، قد تخلق لدى الوسط اليهودي استقطاباً مضاداً للوجود السياسي العربي في اسرائيل[٢٧].

ان بروز فكر سياسي مشابه في طروحاته العلنية لرؤى حركة الارض، احتاج الى مرور نحو ربع قرن من الزمن، وذلك حينما أعلن «الحزب الديمقراطي العربي» في نيسان (ابريل) ١٩٨٨